تاريخ الاستلام: 2021/04/25 تاريخ القبول: 2021/05/23 تاريخ النشر: 2021/06/30

د. فتـــــاش نـــورة
جامعة 20 أوت 1955–سكيكـدة (الجزائر)
Email : n.fettache@yahoo.com

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية المجلد 15/ العـدد 01 –السنة 2021 ص ص 94– 114
EISSN : 2588-2317 ISSN : 1112-8152

ملخص:

اللغة ظاهرة اجتماعية نشأت مع وجود الإنسان على هذه الأرض وحاجته إلى الاتصال والتفاعل بين أقرانه،وتطورت بتطور الاجتماع البشري وتأثرت بما اعتراه من ظروف وتغيرات. فازدهرت بازدهاره وأفلت بانكساره وفي هذا الإطار يأتي موضوع بحثنا ليتطرق إلى إشكالية نشأة اللغة الإنسانية والديناميكيات التي شهدتها والمناحي التي أخذتها.

فمن خلال تحليل مختلف آراء قدماء اللغة والمحدثين، تبين أن إشكالية نشأة اللغة مازالت لم تحسم بعد في حين أن تطورها محكوم بعوامل عديدة أهمها التطور الحضاري للمجتمع.

الكلمات المفتاحية: لغة، تطور لغوي، توحد لغوي، انقسام لغوي، صراع لغوي.

Abstract

This work aims to reveal the different opinions and attitudes this work aims to reveal the different opinions and attitudes of ancient and modern scientists about the genesis of the language, and to identify the factors of its development.In presenting the different positions, we concluded that no opinion can be balanced against another on the question of the origin of the language.

By analysing the various opinions of the elders of the language and the modernists, it was found that the problem of the origin of the language is still unresolved, while its development is related to many factors, the most important of which is the civilized development of society.

Keywords: *language, Linguistic development, Linguistic unity, Linguistic division linguistic conflict.*

مقدمة

تعد اللغة ظاهرة إجتماعية، إذ لا يمكن أن توجد وتستمر وتتطور دون وجود جماعات بشرية تستخدمها للتواصل والتفاعل الإجتماعي. لهذا تعتبر اللغة وسيلة تماسك الجماعة الإجتماعية ويتوقف تقدمها أو تأخرها في المقام الأول على مدى إستعمالها في المجتمع بين أفراده وفي كل قطاعاته ونشاطاته.فاللغة وسيلة تواصل إجتماعي عرفت تطورات طردية بتطور المجموعات البشرية التي تتكلمها.

وقد تباينت وجهات نظر العلماء حول أصل نشأة اللغة والديناميكيات التي عرفتها ماضيا والتي ستعرفها لاحقا. فهل ترجع إلى الوحي والإلهام وهو ما يعتقد به بعض علماء اللغة المسلمين، أم هي إصطلاح ومواضعة وهو ما أجمع عليه الكثير من العلماء المسلمين وعلماء الغرب، أم هي نتيجة تطور أجهزة الصوت عند الإنسان ونمو رغبته في التعبير لقصور لغة الإشارة وعجزها ؟ وما مآل هذا التطور، هل تتجه اللغة الواحدة إلى الإنشطار أو إلى التوحد؟

يهدف هذا العمل إلى الإجابة على التساؤلات المطروحة، وذلك بالكشف عن مختلف أراء ومواقف العلماء القدماء والمحدثين حول نشأة اللغة،والإحاطة بعوامل تطورها،وإتجاهها نحو التوحد أو الصراع.

2. تعريف اللغة وخصائصها

إختلف العلماء في تحديد مفهوم اللغة وفقا لإنتماءاتهم العلمية وحقولهم البحثية. إلا أنهم يتفقون على وظيفتها في التواصل وتبادل الأفكار والمشاعر.

1.2 تعريف اللغة

يرى دي سوسير أن اللغة إذا نظرنا إليها في كل جوانبها كائن متعدد الألوان ومختلط العناصر، فهي على مفترق الطرق بين عدة ميادين، الفيزيائي و الفيزيولوجي والنفسي،

وهي تنتمي إلى المجال الفردي والى المجال الإجتماعي، وهي لا تقبل أن تصنف ضمن أية مقولة من الوقائع الإنسانية، لأننا لانعرف كيف نستخرج وحدتها (محمد سبيلا عبد السلام عبدالعالي ، 2005 ص13)

وتعرف بأنها نظام من النواقل ذات المعنى وتستلزم إثنين فأكثر، تعتمد على الإصطلاح والاتفاق الجماعي السابق، بين أعضاء الجماعة اللغوية على المعنى أو المعاني التي تستدعيها أصوات خاصة. فإذا تحدثنا موضوعيا فان اللغة التي لا نفهمها لا تزال لغة في الواقع، ولكن من وجهة النظر الذاتية ولأسباب عملية لا تعتبر لغة وإنما مجموعة من الأصوات العشوائية.فقط حين يوجد إتفاق على هذه اللغة بأصواتها وصيغها النحوية ومفرداتها وجملها كعملية مشتركة قابلة للتداول بين اثنين على الأقل، تصبح لغة بالمعنى الذاتي والنفعي لكلمة لغة (ماريو باي، 1998 ص40)

ويعرفها علم اللغة الحديث بأنها نظام صوتي أساسا يتكون من رموز إصطلاحية يستعمله أفراد جماعة ما لتبادل الأفكار والمشاعر (أحمد شفيق الغريب، 2006 ص9)

كما عرفها العالم الأمريكي إدوارد سابير Sapir بأنها وسيلة إنسانية خالصة وغير غريزية إطلاقا، لإيصال الأفكار والإنفعالات والرغبات بواسطة نظام من الرموز التي تصدر بطريقة إرادية (محمد أسعد الناذري، 2009 ص10)

وقد كان لمالينوفسكي فضل في النظر إلى اللغة من زاوية أخرى باعتبار أنها ليست مجرد وسيلة للتفاهم أو التوصيل. بل وظيفة اللغة هي أنها حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنتظم وهي جزء من السلوك الإنساني، أي أنها ضرب من العمل وليست أداة عاكسة للفكر(محمد أسعد الناذري، 2009 ص17)

2.2 خصائص اللغة

على الرغم من تعدد اللغات وتنوعها تجتمع على مجموعة من الخصائص:

تتكون من أصوات تصدرها أعضاء النطق الإنسانية، ولكي تصبح هذه الأصوات ذات معنى يجب أن توضع في شكل تتابعي معين، مكونة الكلمة هذه الكلمة أو مجموع الكلمات لا بد أن تكون محل اتفاق أعضاء المجموعة اللغوية باعتبارها قيما رمزية تستحضر في أذهانهم أفكارا معينة...فاللغة المتكلمة تعتمد على الإصطلاح والإتفاق الجماعي مهما قل عدد أفراد الجماعة اللغوية (ماريو باي، 1998 ص41)

عملية الكلام تتكون من جانبين، فتبدأ حركة الكلام من الرباط النفسي أو العقلي الذي سبق الإتفاق عليه في عقول المتكلمين بين دلالة معينة ومجموعة من الأصوات ترمز إليها. ولكن سرعان ما تنتقل الى العملية العضوية عن طريق إشارات عصبية يرسلها العقل إلى الجهاز النطقي لإنتاج الصوت المطلوب، وفي الحال تبدأ مهمة الجهاز النطقي الذي يصدر أصواتا متتابعة مسموعة تنتقل عن طريق موجات صوتية إلى أذن السامع، هاته الأخيرة التي توصل بدورها الرمز الصوتي الذي إستقبلته إلى العقل الذي يعطي هذه الرموز قيمتها، ويترجم الرسالة على ضوء ما أختزن فيه سابقا من علاقة بين الرمز الصوتي و مدلوله، سواء إتفق الفهم تماما مع ما في ذهن المتكلم أم لا . فسر العملية الكلامية كلها يكمن في تلك الصلة القائمة في عقول إثنين بين الرمز والمدلول. وما عدا ذلك من العملية الكلامية عضوي طبيعي ميكانيكي (ماريو باي، 1998 ص42)

3. نشأة اللغة

اختلفت وجهات النظر بين القدماء والمحدثين فيما يخص أصل اللغة، هل هي نتاج وحي أو مواضعه أو تعود إلى أصوات مسموعة من الطبيعة أو نتاج الإشارات ؟

1.3. موقف قدماء اللغويين العرب:

يتساءل أبو الحسين أحمد بن فارس الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها في باب القول على لغة العرب، أتوقيف هي أم إصطلاح ؟ قال: أعلم أن لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قوله تعالى" وعلم آدم الأسماء كلها". فكان إبن عباس يقول: علمه الأسماء كلها، وهي الأسماء التي يتعارفها الناس من دابة ،و أرض وسهل وجبل وجمل... وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وروى خصيف عن مجاهد قال: علمه إسم كل شيء. وقال غيرهما: إنما علمه أسماء الملائكة. وقال آخرون: علمه أسماء ذريته أجمعين (الصاحبي، 1997 ص13)

ولعلى ضانا يضن أن اللغة التي دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد، وليس الأمر كذلك بل وقف الله عز وجل أدم عليه السلام على ماشاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه في زمانه، وانتشر من ذلك ما شاء ثم علم بعد ادم من الأنبياء نبيا نبيا ماشاء الله أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فآتاه الله من ذلك ما لم يؤته احد قبله تماما على ما احسبه من اللغة المتقدمة ثم قر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت (الصاحبي، 1997 ص 14)

وقدم الفرابي وصفا في أصل لغة الأمة واكتمالها ،كيف تحدث حروف الأمة وألفاظها الكائنة من تلك الحروف فيكون ذلك أولا ممن اتفق منهم. فيتفق أن يستعمل الواحد منهم تصويتا أو نقطة في الدلالة على شيئ ما عندما يخاطب غيره فيحفظ السامع ذلك، فيستعمل السامع ذلك بعينه عندما يخاطب المنشئ الأول لتلك اللفظة ، ويكون السامع الأول قد احتذى بذلك فيقع به ، فيكونان قد اصطلحا وتواطئا على تلك اللفظة، فيخاطبان بها غيرهما إلى أن تشيع عند جماعة.ثم كلما حدث في ضمير إنسان منهم شيئ احتاج أن يفهمه غيره ممن يجاوره، اخترع تصويتا فدل صاحبه عليه

وسمعه منه فيحفظ كل واحد منهما ذلك وجعلاه تصويتا دالا على ذلك الشيئ. ولا يزال يحدث التصويتات واحدا بعد أخر ممن اتفق من أهل ذلك البلد، الى أن يحدث من يدبر أمرهم ويضع بالأحداث ما يحتاجون إليه من التصويتات للأمور الباقية التي لم يتفق لها عندهم تصويتات دالة عليها، فيكون هو واضع لسان تلك الأمة. فلا يزال منذ أول ذلك يدبر أمرهم إلى أن توضع الألفاظ لكل ما يحتاجون إليه في ضرورية أمرهم (الفرابي، 1970 ص137-138)

أما ابن جني فقد تطرق في كتابه الخصائص إلى ثلاث نظريات مختلفة في نشأة اللغة والتي قال بها اللغويين في باب القول على أصل اللغة الهام هي أم اصطلاح وهذه النظريات هي نظرية الوحي ونظرية المواضعة ونظرية تقليد أصوات الطبيعة موردا الحجج التي أقاموها على صحة أرائهم فقال في مؤلفه (بن جني، 2006 ص44-46)

هذا موضع محوج إلى فضل تأمل، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف. إلا أن أبا علي رحمه الله، قال لي يوماً: هي من عند الله، واحتج بقوله سبحانه: "وعلم آدم الأسماء كلها" وهذا لا يتناول موضع الخلاف. وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة. فإذا كان ذلك محتملاً غير مستنكر سقط الاستدلال به...

ثم لنعد فلنقل في الاعتلال لمن قال بأن اللغة لا تكون وحياً. وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة، قالوا: وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء و المعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا، إذا ذكر عرف به ما مسماه، ليمتاز من غيره، وليغنى بذكره عن إحضاره، إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره، لبلوغ الغرض في

إبانة حاله. بل قد يحتاج في كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن إحضاره ولا إدناؤه، كالفاني، وحال إجتماع الضدين على المحل الواحد، كيف يكون ذلك لو جاز، وغير هذا مما هو جار في الإستحالة والبعد مجراه، فكأنهم جاءوا إلى واحد من بني ادم فأومئوا إليه وقالوا: إنسان، إنسان، إنسان. فأي وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك، فقالوا: يد، عين، رأس، قدم، أو نحو ذلك. فمتى سمعت اللفظة من هذا عرف معناها، وهلم جرا فيما سوى هذا من الأسماء، والأفعال والحروف. ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها...

وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات، كدوي الريح، وحنين الرعد،... ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل.

2.3 النظريات المعاصرة في نشأة اللغة:

وهي نظريات ذات منشأ غربي تم تداولها من قبل العلماء لتحديد أصل اللغة، والتي تنطلق جميعها من مبدأ الإرتقائية، أي أن اللغة بدأت في صورتها البسيطة من مجرد إشارات أو تقليد لأصوات الطبيعة وتطورت مع تطور عقل الإنسان وحاجته للتواصل والتعبير، ومن هذه النظريات:

1. 2.3 نظرية التطور

يرى أصحابها أن لغة الإنسان الأول سلكت مراحل فطرية متماثلة مع نموه العقلي وهي (نادية رمضان النجار،2016 ص41-42):

مرحلة الأصوات السائدة الإنبعاثية: والتي إتسمت بالتلقائية والتعبير غير المحدد للرغبات والميول، وهي تشبه عندهم المرحلة الأولى من حياة الطفل عندما يصدر أصواتا غير مقصودة الدلالة لا يفهم منها لا غاية ولا هدف.

مرحلة الأصوات المكيفة المنبثقة عن الرغبات المرتبطة بتطور أعضاء النطق من جهة ونمو الإحساس والشعور من جهة أخرى. وهي تناظر حالة الطفل في السنة الأولى من عمره عندما يصدر أصواتا مقترنة ببعض، وفي هذه المرحلة من نمو اللغة عند الإنسان، تشبه الأصوات الصادرة عنه أصوات الحيوان الدالة عن شعوره بالحب أو النفور والرضا أو القلق أو الاضطراب .

مرحلة المقاطع: وفيها إنتقلت لغة الإنسان من أصوات غير محددة المعاني إلى أصوات محددة في صورة مقاطع قصيرة مستنبطة من أصوات الأشياء أو الظواهر الطبيعية أو على الأقل متأثرة بها. وهي تناظر الشهور الأولى في السنة الثانية من عمره، عندما يطلق بعض المقاطع المحددة للتعبير عن رغباته واحتياجاته بعدما كانت أصواتا غير مفهومة أو محددة.

مرحلة الكلمات المكونة من المقاطع: وهي التي أصدرت فيها الأصول العامة للكلمات المنطوقة المعبرة عن الرغبات. و إشتق من هذه الأصول الفروع التي تنوعت معه، فكون من ذلك الحصيلة اللفظية التي إكتمل بها تكوين اللغة الفطرية. وهذه المرحلة إرتبطت بنمو الإنسان العقلي ونضوج أعضائه الصوتية، وهي تناظر السنة الثالثة من نمو الطفل عندما يتكلم بلغة سليمة مستنبطة من مفردات البنية المحيطة به والمعبرة عن رغباته.

مرحلة الوضع والإصطلاح:وهي آخر مرحلة للنمو اللغوي للإنسان ،وترتبط بإزدياد علمه وثقافته وتحضره...وهي تناظر المرحلة الأولى من دخول الطفل للمدرسة.

فاللغة في أول أمرها كانت تدل مفرداتها على معاني جزئية ثم انتقلت إلى المعاني الكلية، وظهرت فيها أولا أسماء الذوات ثم الصفات ثم أسماء المعاني ثم الأفعال. (أحمد مختار، 2002 ص148)

2.2.3 نظرية غريزة التعبير بأصوات مركبة

من أشهر القائلين بهذه النظرية العالم الألماني ماكس مولرMax Muller والعالم الفرنسي رينان Renan. وترى بأن اللغة نشأت بفضل غريزة خاصة، زود بها جميع أفراد النوع الإنساني تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسي أو معنوي بكلمة خاصة به،وتحمل غريزة التعبير الطبيعي عن الإنفعالات عند الإنسان على القيام بحركات خاصة كإنقباض الأسارير وإنبساطها، والضحك والبكاء.

ويرى أصحابها أن هذه الغريزة التي كانت متحدة عند جميع الأفراد في طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها إتحادا أدى إلى إتحاد المفردات، وتشابه طرق التعبير عند الجماعات الإنسانية الأولى، إلا أنها إنقرضت تدريجيا بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى لأن الإنسان لم يعد يستخدمها.

ويستمد ماكس مولر أدلته من البحث في أصول الكلمات في اللغات الهندية والأوروبية. ويرى أن مفردات هذه اللغات جميعها ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك، وهذه الأصول تمثل اللغة الأولى التي إنشعبت منها هذه الفصيلة. فهي لذلك تمثل اللغات الإنسانية في أقدم عهودها. ويرى كذلك بعد تحليل هذه الأصول أنها تدل على معان كلية وأنه لا تشابه مطلقا بين أصواتها وما تدل عليه من فعل أو حالة (محمد اسعد الناذري، 2009 ص32).

3.2.3 نظرية محاكاة أصوات الطبيعة ويطلق عليها نظرية الْ Bow-waw

مفادها أن أصل اللغة محاكاة أصوات الطبيعة، وقد أشار إليها العرب بطريقة غير مباشرة . وقد أدى إلى وضع هذه النظرية ورود كلمات عديدة في كل لغة لفظها يدل على معناها مثل الرنين والغنة والزقزقة والقهقهة والحفيف والخرير والخشخشة والطقطقة، وفي لفظ Cuckoo وهو إسم طائر سمي بالصوت الذي يحدثه. وما يظهر في لفظة (مو) التي تعني في المصرية القديمة وفي اللغة الصينية هرة من الصوت الذي تحدثه. رغم هذا فان الكلمات التي يمكن أن تفسر على نظرية البو- واو قليلة جدا ،كما أن النظرية تعجز عن تفسير ألاف الكلمات التي ليس هناك علاقة بين معناها وصوتها (أنيس فريحة، 1981 ص17-18)

4.2.3 نظرية الإشارة

ويرى أصحابها أن أولى صور التخاطب بين البشر كانت على شكل إشارات جسدية ترجع أصولها إلى السير ريتشارت باجت Paget في كتابه خطاب الإنسان سنة1930. إذ يرى أن الكلمات هي إشارات صوتية، وأن الإنسان القديم كان يتفاهم بالإشارة. ونظرا لتعدد استخدام يديه وإستحالة الرؤية في الظلام والكهوف، إستعاض عنهما بالأصوات. وتعرف نظريته بنظرية Ta-ta، وهي العبارة التي عوضت إشارة اليد (أنيس فريحة، 1981ص21).

ويرى جورج بول في كتابه معرفة اللغة، أن هذه النظرية تفترض علاقة متميزة بين الإيماء المادي والإيماء الشفوي. فمجموعة الإشارات التي كانت تستعمل عوضتها مجموعة إيماءات شفوية، حيث تتوافق حركات اللسان والشفتين مع غيرها من الإيماءات المادية. ويدعمون رأيهم بمجموعة من الحجج هي أن الإشارة تسبق دائما الكلام الذي ترتبط به ولا تتبعه عندما، يطلب من الناس أن يشيرو ويتكلموا في نفس

الوقت، ومن ثم إستدلوا على أن الإشارة أكثر رسوخا في نظم الاتصال. كما وجدوا أن بنية الجملة مشتقة من الإشارة نفسها، و أن الإشارة هي بذرة التركيب، و تساعد على توضيح الكلام. فغالبا ما يستخدم المتحدث في الهاتف إشارات وهو يتكلم ويفهمه السامع دون أن يرى هذه الإشارات. كما أنهم يعتبرون أن لغة الإشارة أسهل للفهم بدليل إستخدامها من قبل الطفل قبل تعلمه الكلام. وتستخدم وتفهم لدى الصم البكم أو في إطار الحديث عن المحرمات أو تبادل الرسائل السرية (نادية رمضان النجار، 2016 ص 45).

4. ديناميكية اللغة الإنسانية

تشهد اللغة الإنسانية مسارات عديدة ومختلفة تتحكم فيها عوامل مادية وإنسانية فهي تتكون ، تنمو وتتطور وتتجه إلى التوحد أو الانقسام كما أنها تتجه إلى الصراع للبقاء والتوسع والانتشار.

1.4 تطور اللغة

كانت اللغة وستظل في تطور دائم تبعا لتطور النشاط الإنساني ومقتضيات الحياة الإجتماعية وشؤونها من إنتقال أو إحتكاك مع الجماعات الناطقة بغيرها فتنشأ ألفاظا وتهجر أخرى أو تنقرض إنقراضا تاما.

وتأسيسا على ما سبق توصف بعض اللغات بالحية أو الميتة وذلك يقاس بإستمرار إستعمال هذه اللغات أو بإنقطاع دورانها على الألسن. فالتجديد اللغوي على مستوى الأفراد لا ينكر إلا إذا أقصى عرفا لغويا قائما ومعتمدا من طرف الجماعة الناطقة، وذلك بالخروج على معايير إستعمال اللغة والتي يحددها العرف كما يحدد المقاييس الإجتماعية من عادات وتقاليد وطرائق معاش . فالمتكلم الذي يستعمل لغة

المجتمع الذي نشأ فيه يستعمل أصواتها وصيغها ومفرداتها وتراكيبها حسب أصول إستعمالية معينة. (هادي نهر، 1981 ص 118)

ومن مظاهر التطور اللغوي أن يصنع المجتمع بمحض إرادته ألفاظا جديدة للتعبير عما يستجد في حياته من صناعات ومبتكرات، أو يهجر أخرى لم تعد طرفا في حياته. وقد تتطور اللغة نتيجة تقليد ومحاكاة أشخاص ذووا مكانة خاصة، وإنتشار التقليد إلى دوائر ومجموعات أخرى مثلما حدث للضرورات الشعرية.

وقد تعرضت اللغة العربية لمظاهر تطور عديدة بعد مجيئ الإسلام وما صاحبه من ثورة على جميع المستويات ، فقد أبرزت كتابات أحمد بن حمدان الرازي322هـ في مؤلفه الزينة في المصطلحات الإسلامية العربية وأحمد بن فارس في 395هـ في مؤلفه الصاحبي ما أصاب الألفاظ العربية من تطور وتغير في الدلالة، وما جاءت به الشريعة الإسلامية من ألفاظ جديدة (هادي نهر، 1981 ص 119).

و تتأثر اللغة في تطورها بعوامل كثيرة يرجع أهمها إلى:

عوامل إجتماعية خالصة تتمثل في حضارة الأمة ونظمها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها ومظاهر نشاطها العملي والعقلي وثقافتها العامة واتجاهاتها الفكرية.فكل تطور يمس أحد هذه الجوانب يمتد تأثيره إلى اللغة. فبتقدم الأمة علميا وإجتماعيا وفكريا تتقدم لغتها لتستوعب هذا التقدم مثلما حدث للعربية، فبإنتشار الحضارة الإسلامية وتطور الآداب والصناعات والفنون اكتسبت مفردات ودلالات وأساليب جديدة.

كما تتأثر اللغة بلغات أخرى ،فإحتكاك المجتمعات نتيجة التجاور أو المبادلات التجارية أو الحروب الطويلة من شأنه أن يؤدي إلى تأثر اللغة ، ويظهر هذا جليا بين العربية والفارسية، ويبرز التأثر عادة في مجال الفنون والعلوم والصناعات التي تمتاز بها البلد المأخوذ عنه.

وللعوامل الأدبية دور في تطور اللغة، فيما ينتجه الناطقين بتلك اللغة من مؤلفات وكتب ومعاجم، وما تبذله معاهد التعليم والمجامع اللغوية في سبيل حمايتها والإرتقاء بها وتعليمها ونشرها.

ويشكل إنتقال اللغة من السلف إلى الخلف عاملا من عوامل التطور اللغوي،على الرغم من أن الطفل يأخذ اللغة عن أبويه والمحيطين به بالمحاكاة والتعلم ، فان لغة الخلف في كل أمة تختلف عن لغة السلف في كثير من المظاهر، ومرد ذلك إلى عوامل إجتماعية تتمثل في النظم والتقاليد التي يسير عليها المجتمع في تلقين الأطفال اللغة، وهي تختلف من جيل إلى آخر، إذ يعتري نطاق دلالة الكلمات تحول و تبدل من جيل إلى آخر. وعوامل أخرى كالتطور الطبيعي المطرد لأعضاء النطق في الإنسان وما يحدثه من إنحراف في أصوات كل لغة أثناء إنتقالها من السلف إلى الخلف، فمثل ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد أصوات الجيم والثاء والذال والطاء والقاف فقد أصبحت هذه الأصوات ثقيلة على أعضاء النطق في كثير من البلاد العربية، وأصبح لفظها على الوجه الصحيح يتطلب تلقينا خاصا ومجهودا إراديا وقيادة مقصودة لحركات المخارج (علي عبد الواحد وافي، 1983 ص 49-50).

كما تتأثر اللغة وتتغير نتيجة الأخطاء السمعية التي تنتج عن ضعف بعض الأصوات وتؤدي إلى سقوطها أثناء إنتقال اللغة من السلف إلى الخلف. فكثير من الأصوات الواقعة في أواخر الكلمات سقطت من عدد من اللغات فيظهر الإختلاف بين كتابة الكلمة ونطقها، مثلما حدث في أصوات المد القصيرة والطويلة وبعض الأصوات الساكنة الواقعة في أواخر الكلمات، فتنطق أغلب الكلمات مسكنة الأواخر. (علي عبد الواحد وافي، 1983ص53)

وأيضا تتطور نتيجة عوامل طبيعية وخاصة العوامل الجغرافية حيث تؤثر هذه الأخيرة على اللغة كما تؤثر على حضارة الشعوب. فتختلف اللغة بإختلاف المناخ واختلاف

الطبيعة، وتتشبع بالألفاظ المستقاة من المظاهر الطبيعية التي تستقر فيها. فما تحمله اللغة من قساوة أو لين يرجع إلى الطبيعة وصنف المعاش الذي يحياه الناطقين بها .

وتتأثر اللغة بالعوامل اللغوية التي ترجع إلى طبيعة اللغة نفسها وطبيعة أصواتها وقواعدها وهي على صنفين، عوامل لغوية تؤثر في تطور الأصوات وعوامل لغوية تؤثر على تطور الدلالة ، ففي ما يخص الصنف الأول فقد يحدث التفاعل بين الأصوات المتباعدة في مخارجها والمتقاربة في الكلمة بحيث يلتصقان أو يتحول أحدهما إلى الصوت الثاني كما يحدث في اللام الشمسية في العربية إذ تتلاشى وينطق الحرف الذي يليها كالذئب ، السماء ، الشمس ،الزهر.. وتارة يمتزجان معا أو يتلاشى أحدهما في الأخر (علي عبد الواحد وافي، 1983 ص62)

أما عوامل التطور المؤثرة في تطور الدلالة فإن إرتباط الكلمة بفصيلتها ومبلغ وضوحها في الأذهان يقلل من تعرضها للتغيير.كما أن ثبات أصوات الكلمة يساعد على ثبات معناها ،لأن صلتها بالأصل الذي إشتقت منه تظل واضحة في الأذهان ، أما تغير صوتها فيجعلها في عزلة مما يسبب تغير مدلولها كما حدث مع الكثير من الكلمات ككلمة Vif بالفرنسية والتي انحرف مدلولها وأصبحت تشير إلى النشاط والحيوية بينما هي في الأصل كلمة Vivus اللاتينية التي تعني الحي (علي عبد الواحد وافي، 1983 ص 75-76)

2.4 اتجاه اللغة نحو التوحد أو الانقسام

في حياة اللغة ميلان متعارضان، أحدهما نحو التقسيم إلى لغات ولهجات والثاني نحو الوحدة المتزايدة الإتساع. فالتفريق يؤدي إلى إنفصالات تزداد تعددا وتكون النتيجة تفتت اللغة تفتتا يزداد بازدياد إستعمالها ، غير أن هذا التفريق لا يصل إطلاقا إلى

تمامه لأن سببا حيويا يقف في طريقه ويعمل على مناهضته وهو عامل التوحيد الذي يعيد التوازن اللغوي. ومن صراع هذين العاملين تنتج أنواع اللغات المختلفة لدى الشعب الواحد من لغات خاصة وإجتماعية ومحلية ولهجات إقليمية ولغة مشتركة، هذه الأخيرة التي تقوم على أساس لغة موجودة تتخذ كلغة مشتركة من جانب أفراد وجماعات تختلف لديهم صور التكلم (رمضان عبد التواب، 1997 ص166)

من اللغويين الذين يميلون إلى رأي التقسيم ويلد Wyld الذي يرى أن اللغة تتجه إلى التنوع اللانهائي ويستشهد أصحاب هذا الرأي بأنه ما ظهرت لغة عامة إلا وإنقسمت إلى لغات كثيرة.

أما جسبرسن Jespersen في كتابه تطور اللغات، فيرى أن هناك قوى لا يجوز التغافل عنها تعمل في الإتجاه المضاد، وأن هذه القوى الموحدة كانت في العصور التاريخية أقوى في حقيقة الأمر من القوى المقسمة، وأنها لكذلك في الوقت الحاضر على وجه الخصوص وستكون كذلك في المستقبل. ويورد مثالا عن قلة عدد الذين كانوا يتكلمون الجرمانية الغربية العامة بالقياس إلى 150 مليون الذين يتكلمون الانجليزية و 75 مليون الذين يتكلمون الألمانية و 10 ملايين الذين يتكلمون الهولندية في الوقت الحاضر (محمود السعران، 1963 ص 170)

وتتشابك عوامل عديدة لظهور لغة عامة وإنتشارها منها الدين الذي يلعب دورا هاما في قيام اللغات العامة والإتصال بين الأقوام عن طريق المصاهرة أو الحروب أو لغرض التجارة .وتلعب وسائل الإعلام دورا هاما في نشر اللغة العامة، كما أن لنمط النظام السياسي المركزي دورا في نشر اللغة العامة. وتعمل المدن الكبيرة على صقل لغة السكان القادمين من مختلف الجهات في لغة عامة. وتتيح المدارس والجامعات والمعاهد للأشخاص الإنضواء تحت لغة عامة تفهم من قبل الجميع.

3.4 صراع اللغات

مثلما تتصارع المجتمعات من أجل الغلبة والسيطرة تتصارع اللغات، وتكون نتيجة هذا الصراع السيطرة والسيادة أو الانكسار والموت. ولا يتم النصر إلا بعد أمد طويل قد يصل إلى أكثر من أربعة قرون، فالرومان أخضعوا بلاد الغال في القرن الأول الميلادي ولم تتم الغلبة اللاتينية إلا في القرن الرابع الميلادي. ويرى اللغويون أن اللغة لا تتغلب على لغة أخرى إلا في توفر ظروف معينة تتمثل في (رمضان عبد التواب، 1997 ص177):

– أن تكون اللغة الغالبة لغة شعب متحضر أرقى من الشعب المغلوب في ثقافته وحضارته وأقوى منه سلطانا وأوسع نفوذا.

– أن تبقى غلبة الغالب زمانا كافيا مع استمرار قوته لتتمكن اللغة الغالبة من بسط نفوذها والانتصار.

– أن تكون هناك جالية كبيرة العدد والنفوذ تقيم بصفة دائمة في بلاد الشعوب التي غلبت لغتها وتمتزج بأفراد هذا الشعب ولا تعيش في عزلة عنه.

– أن تكون اللغتان الغالبة والمغلوبة من شعبة لغوية واحدة أو شعبتين متجاورتين.

و يضع علماء اللغة مراحل لهذا الصراع تظهر في كل مرحلة عوامل تساعد على إنحلال اللغة المقهورة وتؤدي إلى القضاء عليها (رمضان عبد التواب، 1997، ص ص174–175):

ففي المرحلة الأولى تطغى مفردات اللغة المنتصرة وتحل محل اللغة المقهورة شيئا فشيئا ، وتكثر هذه الكلمات أو تقل تبعا للمقاومة التي تبديها اللغة المهزومة، فاللغات البربرية لم تترك في اللغة العربية المنتصرة إلا كلمات قليلة. وكذلك الحال في لغة بلاد الغال التي تغلبت عليها اللاتينية.

أما إذا كان الصراع شديدا وطويل الأمد ،فان اللغة المقهورة قد تحتفظ بمفردات كثيرة تدخل في اللغة الغالبة مثلما حدث بين لغة الانجليز السكسون بانجلترا ولغة الفاتحين من النورمانديين ، إذ خرجت الانجليزية المنتصرة في هذا الصراع وقد فقدت ما يقرب من نصف مفرداتها الأصلية وإستبدلت بكلمات من اللغة النورماندية المغلوبة.

وفي المرحلة الثانية تتغير مخارج الأصوات ويقترب النطق بها من النطق بأصوات اللغة الجديدة شيئا فشيئا ، فتصبح على صورة تطابق أو تقارب ما هي عليه في اللغة المنتصرة، فينطق أهل اللغة المغلوبة ألفاظهم الأصيلة وما إنتقل إلى لغتهم من كلمات دخيلة بنفس المخارج ونفس الطريقة التي يسير عليها النطق في اللغة الغالبة ،فيزداد في هذه المرحلة انحلال اللغة المغلوبة ويشتد قربها من اللغة الغالبة.

وفي المرحلة الثالثة تفرض اللغة المنتصرة قواعدها وقوانينها اللغوية، وبهذا تزول معالم اللغة المغلوبة وتحل استعارات ومعاني اللغة المنتصرة وتموت تدريجيا.

ويذهب أصحاب النظرة الاجتماعية للتطور اللغوي أن الصراع بين اللغات يفضي إلى ثلاث أنماط من النتائج هي (هادي نهر، 1981 ص127-128):

– أن تموت اللغة موتا طبيعيا نتيجة كثرة الناطقين بها وتباعد بيئاتهم ، مما يؤدي إلى تولد لهجات محلية منبثقة من اللغة الأم، وقد تتسع لهجة جديدة وتنمو على حساب اللغة الأم لتكون هي اللغة، وتندثر اللغة الأصل من الذاكرة والألسن مثلما حدث للسامية الأولى و السنسكريتية.

– أن تغزى اللغة المعنية من طرف لغة أخرى حيث يكون الغزاة أكثر عددا من أهل اللغة المغزوة،أو أن يكون الصراع متساوي العدد ،فيعود النصر إلى اللغة التي أصاب أصحابها نوعا من الرقي والحضارة كما هو الحال لدى التتار عند إسقاطهم بغداد فقد إعتنق أكثرهم الإسلام وتعلموا العربية لما عليه أصحابها من رقي يفوق ما عند الغزاة.

– أن تموت اللغة بسبب إمتصاصها للدخيل من لغات أخرى هي في حاجة إليه ،فتقبله فتصاب بالانتعاش في البداية ،لكن سرعان ما يظهر عجزها عن استيعابه في

بنيتها العامة فتنهار تاركة المجال لتسرب البقية من الدخيل مثلما حدث للفارسية حينما غزتها اللغة العربية حتى أصبح العلم والأدب والسياسة لا تعرف تعبيرا غير العربية وإنحصرت الفارسية في الطبقة الدنيا من الفلاحين وصغار التجار والصناع. وماحدث للتركية فقد صارت العربية لغة العلم والحضارة بعد الفتح الإسلامي في تركستان الشرقية والغربية حتى أواخر القرن السادس الهجري.

خاتمة:

بعد عرض مختلف الآراء والمواقف المتعلقة بنشأة وديناميكية اللغة الإنسانية نصل إلى النتائج التالية:

رغم الكتابات والآراء العديدة والتي امتدت إلى القدماء من علماء اللغة حول إشكالية البحث في نشأة اللغة فإنه لا يمكن التيقن من صحتها. ومن هذا المنطلق نادى بعض اللغويين المحدثين إلى إخراج موضوع نشأة اللغة من إهتمامات علم اللغة أمثال فندرييس Vendryesنظرا لاستحالة الوصول إلى أصل اللغة ومنشئها.

أما عن تطور اللغة فقد ثبت أنه متعلق بعوامل داخلية نابعة من اللغة ذاتها ،وعوامل اجتماعية وأخرى طبيعية فأما العوامل المتعلقة باللغة ذاتها فتتمثل في تغير الأصوات أو دلالات الألفاظ. وفيما يخص العوامل الاجتماعية فهي مرتبطة بحضارة المجتمع ودرجة تقدمه علميا واجتماعيا وفكريا. فتقدم المجتمع يفضي إلى تقدم لغته لتستوعب هذا التقدم . كما يمكن أن تتطور اللغات نتيجة الاحتكاك والتجاور فتتلاقح اللغات مؤثرة ومتأثرة بعضها ببعض.

وتعمل التنشئة الاجتماعية عن طريق عملية نقل التراث من جيل إلى آخر إلى نقل اللغة وما ينجم عن ذلك من تحول نتيجة تحميلها مضامين ودلالات جديدة لم تكن موجودة من قبل.

وتتأثر اللغة بالعوامل الطبيعية فتحافظ على نقاوتها في البيئات العسرة ،كما تحمل مضامينها دلالات من الطبيعة والتضاريس التي تعيش فيها.

وفيما يخص اتجاهها نحو التوحد أو الإنقسام فإن المنهج التاريخي سمح بالوصول إلى نتائج يمكن الاعتماد عليها عبر تتبع مراحل تطور اللغات. فصمود اللغات وتطورها يرجع كما تبين إلى تطور ورقي وغلبة المجتمعات التي تتكلم بها. ولا تحتفظ اللغات بنقائها ،وإنما تستعير من بعضها البعض بقدر احتكاك المجتمعات وكما أن هناك قوى تعمل على التوحد اللغوي في لغة عامة رسمية يتعامل بها مختلف أفراد المجتمع ،هناك أخرى مضادة تعمل على إنشطار اللغة إلى لهجات ومنها عوامل طبيعية وأخرى اجتماعية وسياسية.

واللغة لها عمر زمني كأعمار البشر، تظهر للوجود نتيجة الحاجة للتعبير والتواصل، وتتطور لتستوعب الجديد في مختلف الفنون والعلوم ، ويصل بعضها إلى الفناء بموتها موتا طبيعيا نتيجة تباعد الناطقين بها ، فتتولد عنها لهجات محلية أو تندثر لغلبة الغزاة وحضارتهم أو عند غزو الدخيل وعدم قدرة بنيتها الداخلية إستيعابه.

المراجع

1. أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الصاحبي. (1997). في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها. بيروت: دار الكتب العلمية.

2. أبي الفتح عثمان بن جني. (2006). الخصائص (المجلد ج1). القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة.

3. أحمد مختار. (2002). أنا واللغة والمجتمع (الإصدار 1). القاهرة: عالم الكتب.

4. الفرابي. (1970). كتاب الحروف. بيروت: دار المشرق.

5. أنيس فريحة. (1981). نظريات في اللغة (الإصدار 2). بيروت: دار الكتاب اللبناني.

6. رمضان عبد التواب. (1997). المدخل الى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي (الإصدار 3). القاهرة: مكتبة الخانجي.

7. علي عبد الواحد وافي. (1983). اللغة والمجتمع (الإصدار 4). جدة: مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع.

8. ماريو باي. (1998). أسس علم اللغة (الإصدار 8). (احمد مختار عمر، المترجمون) القاهرة: عالم الكتب.

9. محمد أسعد الناذري. (2009). فقه اللغة، مناهله ووسائله. بيروت: المكتبة العصرية.

10. محمد سبيلا وعبد السلام عبد العالي. (2005). اللغة. الدار البيضاء: دار توبقال.

11. محمود السعران. (1963). اللغة والمجتمع،رأي ومنهج (الإصدار 2). الإسكندرية: الاسكندرية.

12. نادية رمضان النجار. (2016). فقه اللغة العربية. بيروت: دار الكتاب العلمية.

13. هادي نهر. (1981). علم اللغة الاجتماعي عند العرب (الإصدار 1). د.م: مكتبة لسان العرب بالتعاون مع الجامعة المستنصرية.